

القراءة السوسيولوجية للنص الأدبي بين الفني والإيديولوجي في النقد المغاربي المعاصر

Sociological reading of the literary text between art and ideology in contemporary Maghreb criticism

عنتر عمير

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، antara.amieur@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/31 تاريخ القبول: 2021/12/13 تاريخ النشر: 2022/05/05

ملخص:

تعددت آراء النقاد المعاصرين تجاه النص الأدبي وعلاقته بالمجتمع بتعدد المناهج النقدية المعاصرة ولما كان من المستحيل فصل هذه النصوص عن الظروف التي تساهم في إنتاجها، ولا يمكن عزلها عن محيطها الاجتماعي والأحداث التاريخية المرافقة لها، ظهرت مناهج أخرى تتناول النصوص الأدبية كبنية لغوية مغلقة وتربطها بالبنية الاجتماعية والتاريخية التي أنتجت فيها في الوقت ذاته، كالبنوية التكوينية وحوارية ميخائيل باختين، كونهما يتجاوزان المنهج البنيوي ونظره للنصوص الأدبية من زاوية واحدة، وعليه تهدف هذه المقالة إلى دراسة القراءة السوسيولوجية للنص الأدبي اعتمادا على البنيوية التكوينية وحوارية ميخائيل باختين وذلك من منظور النقاد المعاصرين المغاربة، ومحاولة الكشف عما يمدد المجتمع من أنساق مضرة للنصوص الأدبية تزيد من فنونيتها وجمالها، والسؤال ما الجديد الذي قدمه عن النص الأدبي بقراءتهم الحديثة؟ وما إذا كان المنهج البنيوي التكويني وحده كاف للوصول إلى الكشف عن هذه العلاقة، أم أنه قاصر بظهور حوارية ميخائيل باختين؟

كلمات مفتاحية: الأدب والإيديولوجيا، البنيوية التكوينية، مرآة، النقد المغاربة، حوارية باختين.

Abstract:

Contemporary critics' views on the literary text and its relationship with society have varied in the multiplicity of contemporary critical approaches, and since it is impossible to separate these texts from the circumstances in which they contribute to their production, and cannot be isolated from their social surroundings and the historical events accompanying them, other approaches have emerged that deal with literary texts as closed linguistic structures and link them to the social and historical structure in which they were produced at the same time, such as the formative structure and the dialogue of Mikhail Bakhtin, as they go beyond the structural approach and its view of literary texts from one angle, and therefore this article aims to Studying the sociological reading of the literary text based on the formative structure and dialogue of Mikhail Bakhtin from the perspective of contemporary Moroccan critics, and trying to reveal the embedded patterns of literary texts that increase their artisticity and beauty, and the question what new did they present about the literary text with their modern reading? Whether the structural formative approach alone is sufficient to reveal this relationship, or is it limited by the emergence of Mikhail Bakhtin's dialogue?

Keywords: Literature and Ideology, Formative Structure, Mirror, Moroccan Critics, Bakhtin Dialogue.

مقدمة:

تعتبر قضية الأدب والإيديولوجيا من أهم قضايا النقد الحديث والمعاصر، التي طالما شغلت اهتمام النقاد المعاصرين، سعيا وراء الكشف عن العلاقة التي تربط بينهما، كون الأدب مجالا حيويا من جهة، يشكل علاقات كثيرة مع العلوم الإنسانية كالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم السياسية وغيرها، وتعبيرا عن كل ما يتعلق بالإنسان، ومترجما لأفكاره وتصورات، وناقلا لأحاسيسه ومشاعره ومرآة عاكسة للمجتمع بكل مظاهره وأحداثه من جهة أخرى، في حين تعد الإيديولوجيا تصورا للعالم تتجلى ضمنيا في مجالات كثيرة كالفن والاقتصاد والقانون، وتشمل هي الأخرى كل مظاهر الحياة الفردية والجماعية، ومع شيوع البنيوية التكوينية كمنهج نقدي معاصر، يجمع بين النص كبنية لغوية مغلقة والواقع الاجتماعي الذي أنتج فيه هذا النص كبنية كبرى أشمل وأوسع، اشتغل بعض النقاد المغربي على دراسة وتحليل هذه القضية بنويا تكوينيا، ومن بينهم الناقد والسوسيوولوجي الجزائري "عمار بلحسن" في كتابه "الأدب والإيديولوجيا"، والناقد التونسي "الذهبي اليوسفي" في كتابه "الأدب والإيديولوجيا في النقد العربي الحديث"، وكذا الناقد المغربي "حميد الحمداني" في كتابه "النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيوولوجيا الرواية إلى سوسيوولوجيا النص الروائي".

لقد اهتم هؤلاء النقاد وغيرهم بالنص الأدبي وحاولوا إعطاء تفسير للشفرات والرموز والعلامات اللغوية التي تسكنه ومن بينها الإيديولوجيا التي تعتبر من المضمورات التي تتخلل النص الأدبي كونها من علامات الحياة الاجتماعية كذلك، والتي قال عنها اللغوي السويسري "فردينان دي سوسير" Ferdinand de Saussur : «اللغة نظام علامات يعبر عن أفكار ومن هنا فهي تشبه الكتابة، وأبجدية الصم البكم، والطقوس الرمزية وأشكال التأدب، والإشارات العسكرية... يمكن إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية» (رزيق بوزغاية، 2018 ، ص.59).

هكذا وإلحاطة أكبر بموضوع البحث يجدر توضيح العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا بصفة عامة، ثم تقديم مفهوم البنيوية التكوينية التي سنشتغل عليها في هذه الدراسة باعتبارها المنهج الذي فك العزلة وكان حلا وسطا بين المنهج البنيوي والمناهج السياقية كالمناهج الاجتماعية والتاريخية وغيرها.

وإضافة إلى ما تقدم يقودنا الحديث إلى حوارية ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin، وما أضافته من جديد للبنىوية التكوينية في هذا المجال، وعليه وبعد طرح القضايا السابقة التي تعتبر كجوانب وزوايا للنظر في القضية الرئيسية ألا وهي علاقة الأدب بالإيديولوجيا بنيويا تكوينيا، فمن هذا المنطلق تواجهنا الإشكالية: كيف تتشكل العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا بنيويا تكوينيا؟ وهل المنهج البنيوي التكويني كاف للكشف عن هذه العلاقة في نظر النقاد المغاربة؟ وكيف عالج النقاد المغاربة أمثال "عمار بلحسن والذهبي اليوسفي وحמיד الحميداني" هذه القضية؟، وهل اتفقوا في الرؤية ذاتها أم لا؟ وما الجديد الذي قدموه بقراءتهم السوسيولوجية للنص الأدبي؟

1. الأدب والإيديولوجيا:

تعتبر الإيديولوجيا في كل عصر مرجعا للأدب يستند إليها حيث تمكنه من تحقيق ذاته وتحقق حضور الإيديولوجيا في الخطاب الأدبي يكمن في النصوص المنتجة في فترة تاريخية معينة، وإذا كانت هذه النصوص نتاجا لغويا، فالإيديولوجيا كذلك نتاج لغوي، وللحديث عن قضية الأدب والإيديولوجيا من الضروري التطرق إلى العلاقة بينها وبين اللغة، فأهمية اللغة بالنسبة للإيديولوجيا تتضح في كونها "الأداة الأساسية المستخدمة في نقل وإيصال الأفكار وتفسيرها وتعليل أغراضها ومراميها" وهذا ما يؤكد "ميشال فوكو" Michel Foucault حين بين أن: «الخطاب يحمل إيديولوجيا ما يفرضها، وكل إيديولوجيا تجد خطابها، ذلك أن الأنساق الدالة ونماذج البلاغة والأسلوبية تتضمن كل منها إيديولوجيا وتصورا للعالم، وموقفا اجتماعيا، فكل محتوى إيديولوجي يجد شكله ولغته وبلاغته الخاصة به إذ أصبح لكل تحول اجتماعي تحولا في بلاغته حتى كاد أن يكون قانونا موضوعيا» (جوليا كرستيفيا، 1987، ص.157)، ولكل إيديولوجيا لغتها الخاصة ومفاهيمها المتميزة وهنا تلتقي مع الأدب، فالنصوص التي تنتجها الإيديولوجيا نتاج لغوي، والأدب كذلك نتاج لغوي، وهذا ما يؤكد كمال أبوديب بقوله: «فالأدب فعل لغوي حين ندرك هذه الحقيقة البسيطة نبدأ في استقراء منطوياتها، ندرك بشكل حاسم أن الأدب فعل في فضاء إيديولوجي، بل ندرك أهم من ذلك بكثير، لأن الأدب على وجه الخصوص فعل لغوي فهو في الآن نفسه إيديولوجي» (أبوديب، عدد 04 الجزء 02، 1985، ص.ص.51-89).

وعليه فالأدب فعل لغوي وفي الآن نفسه فعل إيديولوجي إذ يقودنا ذلك إلى أن ما يختاره الأديب لإنتاج نص في فضاء اللغة وما يستحضره من فضاء اجتماعي هو ممارسة إيديولوجية،

وحيث ينتج نصه يضمه تصورات الإيديولوجية التي تعبر عن رؤية العالم، وهنا يلتقي الأدب والإيديولوجيا كوجهين لعملة واحدة.

2. البنيوية التكوينية: (Structuratisme génétique)

من خلال اتضاح علاقة الأدب القوية بالواقع الاجتماعي وحتى يتجلى الأمر أكثر لابد من التطرق للبنيوية التكوينية ودورها في تشكيل علاقة الأدب بالإيديولوجيا، والتي توضح الوظيفة الاجتماعية التي تربط بين الأدب والإيديولوجيا في النصوص الأدبية عامة والروائية على وجه الخصوص لأن النقد المغربي ومن بينهم "عمار بلحسن" في كتابه "الأدب والإيديولوجيا" طرح رأي غولدمان Lucien Goldman كونه صاحب المنهج البنيوي التكويني حتى يفصل ويكشف عن حقيقة تشكل العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا بنيويا تكوينيا.

تتألف البنيوية التكوينية من كلمتين: كلمة "البنيوية" وتتمثل في التعامل مع النص كبنية تدرس في إطارها الخاص ولا شيء خارجها، وكلمة "التكوينية" وتتمثل في التركيز على الدراسة السابقة لكن بطريقة موسعة أي الممازجة بين ما هو داخل النص وخارجه، يقول الذهبي اليوسفي في هذا الصدد: «إن الدراسة التحليلية للرواية تقابلها مرحلة التفسير لدى غولدمان Lucien Goldman وهنا يتم التركيز على القراءة الداخلية للنص بمعزل عن التأثيرات الخارجية قدر الإمكان، ويقابل هذا التناول التفسيري مرحلة أخرى تركز على الشرح، وهي تناول القراءة السابقة بشكل موسع يعتمد على المقابلة والمزاوجة المستمرة بين الداخل والخارج... فتقرأ الرواية مرة في ضوء الإطار الخاص بها، ومرة في ضوء الإطار المرجعي الأشمل المحيط بها وهو السياق الاجتماعي...» (اليوسفي، 2016، ص.232).

ومن القول السابق تتضح طبيعة البنيوية التكوينية في التعامل مع النص الأدبي وبالأخص النص الروائي بالمرج بين الإطار الداخلي والخارجي للنص، وتناوله كنتاج لغوي ونتاج اجتماعي في الوقت ذاته لأن شرحه وتفسيره وتحليله، لا يقتصر على النص كبنية لغوية فقط بل النظر إلى النص كواقع اجتماعي كذلك، وقد حدد غولدمان Lucien Goldman هذا التبني حيث على الباحث أن يتعامل مع الرواية كجنس أدبي بوصفها:

• وحدة مكتفية بذاتها.

- الرواية نتاج لواقع اجتماعي معين، وذلك من خلال مرحلتي الفهم والتفسير من ناحية والشرح من ناحية أخرى (اليوسفي، 2016، ص.232).

وهذا ما عبر عنه "بول باسكادي" paul paskadi إذ يقول: "نسجل إذن أن البنيوية التكوينية تسعى إلى تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، بين حكم القيمة وحكم الواقع، بين التفسير والفهم، بين الغائبة والاحتمية (غولدمان وآخرون، 1986، ص.46) ويلتقي معه الحميداني فيما ذهب إليه حينما اعتبر تحليل الرواية يبني على مقامين: أولهما هو التوجه إلى بنية العمل الداخلية، وهي كمرحلة أولى يسميها غولدمان Lucien Goldman مرحلة الفهم والمرحلة الثانية: وهي المرحلة التي يتم فيها الربط بين البنية الدالة وبين إحدى البنيات الفكرية المتصارعة في الواقع الثقافي في المجتمع.

ويؤكد ذلك الحميداني بقوله: «إن مفهوم البنية (Structure) ومفهوم التكوين (Genése) هما الأساس الذي تقوم عليه البنيوية التكوينية (genétique Structuratisme)، انطلاقاً من المرحلة الأولى-كما ذكرنا- والتي تتعلق بدراسة البنية وفهمها ثم المرحلة الثانية والتي تتعلق بدراسة التكوين أي ربط العمل بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، بتفسير هذا العمل وإدراك وظيفته ضمن الحياة الثقافية في الوسط الاجتماعي» (حميد الحميداني، 1990، ص.68).

يتجلى من خلال ما تقدم أن النص الأدبي وبما فيه الرواية، عبارة عن ممارسة لغوية في إطار اجتماعي محدد، وعليه تمزج البنيوية التكوينية Structuratisme génétique عند غولدمان Lucien Goldman بين النص الأدبي كبنية لغوية جمالية، وكبنية اجتماعية مستقلة، فالرواية كجنس أدبي على وجه الخصوص لا بد من النظر إليها شكلاً ومضموناً ككيان لغوي واجتماعي في الوقت ذاته، ولا تأخذ من زاوية واحدة، فإذا أخذت من الناحية السوسولوجية تهمل اللغة والدلالة وإذا درست من الناحية الدلالية واللغوية أهملت الجانب السوسولوجي يقول غولدمان Lucien Goldman: «الرواية تأبى كل التأويلات السوسولوجية السهلة، لكن بشرط، أن ترفض ذلك الإغراء الذي يمثله شكلها بالذات، وهو تأويلها على مستوى المضمون والتفاصيل.... إن الرواية باعتبارها سيرة ووقائع، تنطوي بالضرورة على تصور واقعي للمجتمع، الذي هو مجرد عنصر ولا يكتمل معناه إلا بالنسبة للمجموع»، (غولدمان وآخرون، 1986، ص.166)، فهي تجمع بين النصية والاجتماعية، وذلك بالتركيز على الخلفيات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

والثقافية، وكيف تتشكل داخل النص الأدبي فنيا وجماليا، وهذا ما ذهب إليه "رولان بارت" roland barthes حينما رأى: "أن القراءة السوسيونقدية هي التي تجمع بين النصية أو الجمالية الأدبية والواقع الاجتماعي، أي: تمزج بين الأدب كبنية جمالية مستقلة والمعطى السوسيوولوجي، كما هو حال البنيوية التكوينية "للوسيان غولدمان" Lucien Goldman الذي يماثل بين البنية الأدبية المستقلة والبنية الاجتماعية المستقلة بدورها عن طريق الانعكاس غير المباشر، ومن هذا المنطلق ترى "كايار (F.Gaillard)": «أن تدوين النص الاجتماعي في النص الروائي لا يقرأ من خلال الأقوال الإيديولوجية بشكل ظاهر... بل من خلال تضمين هذه الأقوال في السرد وذلك وفق نمط إدماجي يقوم بعملية التحويل» (بارت، 2003، ص.12).

3..علاقة الأدب بالإيديولوجيا بين البنيوية التكوينية "للوسيان جولدمان"، وحوارية "ميخائيل باختين":

1.3. من منظور "عمار بلحسن" و"حميد الحميداني":

انطلق "عمار بلحسن" في كتابه "الأدب والإيديولوجيا" من فكرة أن العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا معقدة وثرية في آن واحد، وصعبة على المستوى المنهجي والنظري (بلحسن، 1984، ص.71) إذ نلمس بعض الاختلاف عند الحديث عن الأدب والإيديولوجيا وإذا كان الأمر كذلك فما العلاقة والرابط الذي يجمعهما، ويجعل الإيديولوجيا حاضرة في الأدب؟.

على هذا الأساس طرح "بلحسن" إشكالا حول الوظيفة الاجتماعية التطبيقية للممارسة اللغوية الدلالية للرواية كجنس أدبي بعرض رأيين للوسيان غولدمان Lucien Goldman يتمثل الرأي الأول: في أن الوظيفة الأساسية للأدب لا تختصر في وظيفة واحدة فقط، وهي الوظيفة الجمالية، لأن الوظيفة الاجتماعية للأدب أكبر تأثيرا، وبالتالي لا يمكن إهمالها واستبعادها، فارتباط الممارسة الأدبية والروائية باللغة يجعلها تقوم موضوعيا بوظيفة أو وظائف إيديولوجية وتجيب على حاجات اجتماعية فكرية، وأنه لا يمكن التمييز بين الروايات الهابطة الرديئة والروايات التي تحقق الانسجامية وتتضمن إشباعا جماليا وخياليا، وعليه فالوظيفة الأساسية للخلق والإبداع الأدبي هي منح المجموعات الاجتماعية وعيا وإبداعا، هذا حسب الرأي الأول لغولدمان Lucien Goldman.

أما فيما يخص الرأي الثاني الرواية تجيب على حاجات إيديولوجية ويظهر هذا الجواب كخطبة موجهة للقارئ، فالراوي يأخذ الكلمة ويجعلها كواسطة لتبليغ خطبته أي رسالته عن الواقع، وهذا ما يجعل من الرواية خطابا إيديولوجيا، وكلمة مبنية بمواد وعناصر سردية (بلحسن، 1984، ص.ص. 137، 138).

وبتأمل الرأي الأول لغولدمان Lucien Goldman : «أن السوسيولوجية الجنينية البنيوية لا تهتم بمضمون قطاع الحياة الاجتماعية ومضمون الأدب كشكل للعلاقة الجوهرية بينهما... وإنما بإعطاء المجموعة الاجتماعية التي تتلقى هذا الخلق وعيا وإدراكا بانسجامية حياتها عن طريق التمثيل الجمالي الروائي المقدم لها من طرف الكتاب والأدباء والمبدعين» (بلحسن، 1984، ص.ص. 135، 136)، يتضح إذن أن الاهتمام هنا ليس بالعلاقة بين الحياة الاجتماعية، وبين الأدب وإنما الغاية من ذلك هي الوصول إلى وظيفة كل منها بعد تشكل هذه العلاقة، يقول بلحسن: «...نرى أن الوظائف الاجتماعية للأدب أكبر تأثيرا وأوسع مدى وأكثر فعالية من وظيفة تحقيق انسجامية الوعي والرؤية للوعي،...ذلك أن ارتباط الممارسة الأدبية والروائية باللغة يجعلها تقوم موضوعيا بوظيفة أو وظائف إيديولوجية» (بلحسن، 1984، ص.ص. 136، 137).

وعليه فإن الوظيفة الحقيقية للأدب تتجلى في وظيفته الاجتماعية، وتكون أكثر فعالية من تحقيق الانسجامية للوعي والرؤية للوعي، بل تتعدى ذلك إلى القيام بوظائف إيديولوجية، من خلال ارتباطها الوثيق باللغة ولكن لا يعني هذا أننا نستطيع فصل الأدب عن علاقته بالحياة الاجتماعية، بل النظر إليه دائما كظاهرة اجتماعية أولا وهذا ما يراه "روبير أسكاربيت rober_iskarbit إذ يقول: «يجب النظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأديب...الأدب هو ظاهرة اجتماعية، هو الإدراك الحسي للحقيقة عبر الصور الخلاقة» (اسكاربيت، 1999، ص. 25).

إن للأدب علاقة قوية بالحياة الاجتماعية، لأن الظروف التاريخية والاجتماعية التي ينتج فيها النص الأدبي تؤثر بالدرجة الأولى في الأديب وتجعله ينتج صوراً خلاقة عن طريق إدراكه الحسي للحقيقة، وهذا ما يجعل الإيديولوجيا تحضر في النص الروائي كدليل يربط الدليل اللغوي بالمداول الاجتماعي، وهذا ما يؤكد الحميداني إذ يقوله: «إن المظهر اللساني للأدب هو في الوقت نفسه مظهر اجتماعي» وهذه النقطة بالذات وضحها "باختين" Mikhail.Baktine بشكل دقيق في كتابه

"الماركسية وفلسفة اللغة"، عندما يتحدث عن علاقة الدليل اللغوي بالدليل الاجتماعي، فالدليل Singe لا يعكس الواقع فقط، ولكنه يجسده، ويدخل في سياقه، ويواصل بقوله: "كل ما هو إيديولوجي يملك مرجعا ويحيلنا على شيء ما له موقع خارج عن موقعه وبعبارة أخرى فكل ما هو إيديولوجي هو في الوقت نفسه بمثابة دليل". (الحميداني، 1990، ص.49).

وعليه وإذا كان بلحسن يميز من خلال طرح رأي غولدمان Lucien Goldman بين الوظائف الاجتماعية والوظيفة الجمالية للأدب، ويذهب في الوقت ذاته إلى التمييز بين الروايات الجيدة والروايات الهابطة، حين رأى أن الوظيفة الاجتماعية للأدب تتعدى الإطار الضيق، وهذا ما يؤكد به قوله: «إن استجابة وإقبال القراء على الروايات الهابطة فنيا، تؤكد أن هذا النوع له وظيفة اجتماعية تتعدى الإطار الضيق لوظيفة تحقيق الانسجام والإشباع الجمالي والخيالي» (بلحسن، 1984، ص.137).

فوظيفة الأدب لا تقتصر على تحقيق الانسجام والإشباع الجمالي والخيالي فحسب، بل الوظيفة الحقيقية للأدب هي الوظيفة الاجتماعية بالدرجة الأولى، فإذا كان غولدمان Lucien Goldman يركز على النص كبنية لغوية، ويربط هذه البنية بفئة اجتماعية معينة في نظر بلحسن، فباختين Mikhail.Baktine في نظر الحميداني يقيم النص في الاجتماعي ويربط الإيديولوجي بالقول اللغوي، ولا يميزه سواء أكان في نطاق لغوي متداول أو كان صياغة أدبية مميزة، وهذا ما يؤكد به الحميداني بقوله: «...غولدمان يبقي على البنية وإن أقام علاقة التناظر بينها وبين البنية الأوسع، أو بين بنية العمل الأدبي من جهة والبنية الذهنية للفئة الاجتماعية التي يعيد الأديب تركيبها في النص، بينما يتجاوز باختين-Mikhail.Baktine هذه المسألة فيقيم النص في الاجتماعي إذ يقيم الإيديولوجي في القول اللغوي سواء كان هذا القول في نطاق اليومي المتداول أم كان صياغة أدبية متميزة في جنس معين» (الحميداني، 1990، ص.45).

وعليه فالحميداني يرى أن باختين Mikhail.Baktine تجاوز غولدمان Lucien Goldman في نظريته إلى حضور الإيديولوجيا في القول اللغوي، فهي تحضر في النص الأدبي دون تميز سواء أكان هذا النص في مستوى راق أم متدني فهو لا يخالف بلحسن في طرحه لرأي غولدمان Lucien Goldman وإنما يرى أن طرح باختين أقوى من طرح غولدمان Lucien Goldman، لكنه يلمس بعض التناقض بعدما استحضر كلا من رأي غولدمان Lucien Goldman وباختين

Mikhail.Baktine، ويوضح الحميداني ذلك بقوله: «أعتقد أن ثمة بعض التناقض: كيف يمكن التوفيق بين مفهوم يرى إلى النص {كذا} في بنيته، ومفهوم يقيم النصوص على تمايزها في حقولها الثقافية وعلى مستواها المشترك الذي يتمثل في مستواها الإيديولوجي؟، على هذا المستوى تتعدد المواقع، وتختلف وتتناقض، وليس تعددها هذا وتناقضها سوى حركة الصراع الاجتماعي» (الحميداني، 1990، ص.46).

وعلى أساس ما تقدم فالحميداني لا يكتفي بالبنوية التكوينية لغولدمان Lucien Goldman في تحليله لهذه القضية، فإذا كان بلحسن عند استشهاده برأي غولدمان Lucien Goldman الذي يركز على البنية الأدبية ويعتبرها بمثابة عمق النص، ولا يهتم بطبيعة هذه البنية، وكذا بتعدد المعاني التي يحملها النص فالحميداني يرى أن باختين Mikhail.Baktine تجاوز غولدمان Lucien Goldman بطرحه مبدأ الحوارية Dialogisme، وأنه لم يفصل بين الأدب والحقول الثقافية والأيدولوجية، فالحوارية Dialogisme التي وضحها "تودوروف" T.todorov عندما ناقش مبدأها وأعطاه تسمية جديدة وهي (التناص) إذ يقول: «كل علاقة بين ملفوظين تعتبر تناسبا فكل نتاجين شفويين، أو كل ملفوظين يحاور أحدهما الآخر، يدخلان في نوع خاص من العلاقات الدلالية نسميها علاقات حوارية» (T. todorov, 1981, p.96)، إذ يفتح النص الروائي لحظة إنتاجه على نصوص أخرى، وهذا ما يعرف بالتفاعل النصي حيث يساهم من خلال أشكاله المختلفة من تناص وميتناص وغيرها في جمع العديد من القضايا المطروحة سابقا، سواء أكانت أدبية أم إيديولوجية في نص واحد يقول "سعيد سقطين" في هذا الصدد: «إن الميتناص الأدبي والإيديولوجيا يهيمنان بشكل كبير وتدخل في الإيديولوجي كل ما اتصل بقضايا اجتماعية وسياسية وفكرية عامة، وتبرز لنا هذه الهيمنة في كون العديد من الشخصيات لها صلة بالثقافة والسياسة والأدب» (يقطين، 2001، ص.121).

تبرز أشكال التفاعل النصي ومستوياته المختلفة من مناص وتناص وميتناص كيفية تشكل بنية النص الأدبي الروائي وعلاقته مع بنية نص آخر أصلي، وما نستدعيه من قضايا إيديولوجية، والتي تبرر موقف الكاتب من نظريته للمجتمع، ومن تصوره للعالم مع مزجه لنصوص تاريخية بنصوص حديثة، يؤكد "يقطين" هذا بقوله: «النص الروائي وهو يتفاعل مع النص الآخر يحوله

لبنيته، ينقل عوالمه الخاصة به (أسلوبا-لغويا- طرائق حكي...) ولكنه من خلال تفاعله معه ينتج نصا جديدا هو النص الروائي». (يقطين، 2001، ص.126)

وهذه نظرة "جوليا كرسيتفيا" Julia kristeva عندما ذهبت إلى أن النص هو عبارة عن تداخل وتفاعل نصوص سابقة تساهم في إعادة بناء وتشكيل نص آخر إذ تقول: «يتألف كل نص من فسيفساء من الاقتباسات كل نص امتصاص وإعادة تشكيل لنص آخر» (الرويلي والبارزي، 2005، ص.319).

وليست هذه الفسيفساء إلا مزيجا من الأفكار والإيديولوجيات المستمدة من الواقع الذي يتقاطع ويتداخل في ذهن الكاتب، ومنها يشكل نصه كمجموعة من الأفكار والأحداث السابقة في ثوب جديد، لا نلمسه بسهولة، بل بعد دراسة دقيقة وواعية باستحضار كل خلفية من خلفيات هذه النصوص داخل هذا النص الجديد، وذلك لأن كل استخدام أدبي يتضمن بعدا إيديولوجيا واجتماعيا كما ترى ذلك "جفرسون" إذ تقول: «إن كل استخدام للغة بما فيه الاستخدام الأدبي هو استخدام اجتماعي وإيديولوجي في آن واحد» (آن، وديفيد، 1992، ص.70).

ومن خلال ما سبق نستخلص أن الحوارية Dialogisme في الرواية تنتج من التفاعلات النصية حسب ما وضعه تودوروف T. todorov، لأن هذا التداخل والتفاعل بين النصوص السابقة والنصوص الحديثة تم بواسطة اللغة، وباستحضار نصوص تاريخية فهي مزج أساليب وطرق حكي وأفكار وأحداث سابقة تعبر عن الواقع، فلا يكون الكاتب روائيا إلا إذا قرأ روايات الآخرين وتأثر بها فهو لا ينطلق من فراغ، فحين يشكل عمله أو روايته فهو بصدد مواجهة روايات الآخرين وأعمالهم وهذا ما عناه الحميداني بقوله سابقا: «أن كل ما هو إيديولوجي بمثابة دليل» (الحميداني، 1990، ص.49)، وهذا الدليل موجود في أعمال الآخرين ورواياتهم فالأديب أو الروائي حين يشرع في إنتاج نصه وتشكيله يكون متأثرا بنصوص الآخرين وقد واجهها ومر بها، وحين يستخدم اللغة استخدما أدبيا يستخدمها اجتماعيا وإيديولوجيا معا، وهذا هو النص الأدبي الروائي، الذي يجمع بين اللغة والمجتمع والإيديولوجيا في وقت واحد.

وقد لخص الحميداني ما تجاوز به باختين Mikhail Baktine غولدمان Lucien Goldman في هذه القضية التي يطرحها بلحسن في ما يلي:

«غولدمان Lucien Goldman يقول فقط بوجود بنية داخلية في العمل الأدبي، ولا بين طبيعة هذه البنية ووسائل وأدوات تحليلها، ساعيا إلى تحديد البنية الدالة التي تعتبر عمقا للنص، وبعد اكتشافها يقارنها بأوسع مناظرة لها ويلتمس وجودها في الحقل الثقافي أو الإيديولوجي، أما باختين Mikhail Bakhtin لا يفصل بين الأدب والحقول الثقافية والإيديولوجية، فهي ملتزمة بالمظهر اللساني، وحدد البنية تحديدا دقيقا فطبيعتها اجتماعية بالدرجة الأولى، واعتبر المظهر اللساني في الوقت نفسه مظهرا اجتماعيا، ويرى أن الحوارية هي الوسيلة والأداة الممكنة لتحليل بنية الرواية، فهي ذلك الشيء الأساسي الذي ينقص البنيوية التكوينية» (حميد الحميداني، 1990، ص.48).

وهكذا يتضح أن الحميداني يطرح مباشرة مسألة الحوارية Dialogisme في تحديد العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا أما بلحسن فقد اكتفى بطرح رأي غولدمان Lucien Goldman في هذه القضية، ومن خلال توضيح دور البنيوية التكوينية في تحديد علاقة البنية الاجتماعية بالنص الأدبي الروائي، فالحميداني يرى أن ما ذهب إليه باختين Mikhail Bakhtin قد تجاوز آراء غولدمان Lucien Goldman بطرحه مبدأ الحوارية Dialogisme، وتعدد اللغات والأصوات، والتفاعل النصي، وعليه فالحوارية في نظره أشمل وأوسع من البنيوية التكوينية.

2.3. علاقة الأدب بالإيديولوجيا من منظور الذهبي اليوسفي:

أما الذهبي اليوسفي فإنه يرى أن علاقة الأدب بالإيديولوجيا بنيوية تكوينية امتداد للمنهج المادي الجدلي في دراسة علاقة الأدب بالواقع الاجتماعي، ومن خلال سعيه للكشف عنها، طرح ثلاث خطابات تتشكل بهم هذه العلاقة وهم: خطاب التشكل المنهجي، وخطاب التناسج المصطلحي، وخطاب التجاوز، وانطلق من فكرة أن الأدب وإن كان يتشكل في إطار إيديولوجي فهو يتجاوزه إلى ما هو إنساني/كوني، وقد بين اليوسفي تشكل هذه العلاقة بنيوية تكوينية في أن: «النص ليس سوى حامل للأيديولوجيات يجب الكشف عنها بصفة آلية، إذ تتجلى في بعض الأحكام النقدية المرتبطة في الأصل بالخلفية الإيديولوجية للباحث، وليست نابعة مما يتضمنه النص من إيديولوجيا وعليه تتشكل هذه العلاقة منهجيا انطلاقا مما توفرت عليه بعض المقاربات من مقابلات مرآوية بين العمل الأدبي والواقع الاجتماعي» (الذهبي اليوسفي، 2016، ص.282).

يؤكد اليوسفي أن الإيديولوجيا التي تحملها النصوص مرتبطة بخلفية الباحث أو الكاتب بالدرجة الأولى وليست مادة أصلية في النص، ولذلك علاقتها بالأدب تتشكل منهجيا، من خلال بعض المقاربات التي يعكسها واقع المجتمع على العمل الأدبي بالإعتماد على مقاربات مرآوية تتعلق مباشرة بمنتج النص، وهذا ما يجعلها تكشف وتتجلى آليا من خلال طرح أحكام نقدية متعلقة بإيديولوجيا الباحث، ويواصل اليوسفي في السياق ذاته بأن: «هذه العلاقة ظلت رهينة السياق الأدبي واختزلت في جهاز اصطلاحي يكشف خصوصية المنهج الواقعي النقدي، وكذلك أن الأدب أصبحت دراسته تتحدد بشروط المنظومة الإقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال ارتباط النص بالسياق الاجتماعي الذي تولدت عنه مقولات نقدية مستمدة من منظومة الفلسفة المادية التاريخية، ومع تطور دراسته أصبحت دراسة النص تتم بواسطة الكشف عن بنيته الدالة وربطها بالسياق الاجتماعي العام، في حين تعد البنيوية التكوينية من المقاربات الاجتماعية التي كان لها جهاز اصطلاحي يبدو متماسكا في مستوى الكشف عن علاقة الأدب بالواقع الاجتماعي وذلك باعتماد مسار منهجي يتبع مراحل محددة في الكشف عن البنيات الدالة للنص والتي تنتهي بالكشف عن رؤية العالم» (الذهبي اليوسفي، 2016، ص.ص. 283، 284).

من خلال ما تقدم وبعد مناقشة رأي كل من النقاد الثلاثة لهذه المسألة، يتضح أن عمار بلحسن وحميد الحميداني يتفقان في الطرح ذاته، أي في الشرط الذي يرى أن علاقة الأدب بالإيديولوجيا بنيوية تكوينية تتشكل انطلاقا من كونها وجهان لعملة واحدة اللغة والمجتمع، "فبلحسن" ينطلق من خلفية علاقة الأدب بالواقع التي استمدتها غولدمان Goldman من أستاذه "جورج لوكاتش" ومفادها أن غولدمان Goldman صرح بأن هناك علاقة وطيدة بين البنية الاجتماعية والبنية الأدبية ويضع مع هذه البنية الشكل والجنس الأدبي لأنهما يصوران الواقع وذلك أن الإيديولوجيا تتمثل في الوعي الممكن الذي يعتبر محركا لفكر الطبقات الاجتماعية والذي يرسم مستقبلها في الآن ذاته، ومنها استخلص رؤية الأديب للعالم التي تكون بشكل مضمّر في النصوص الأدبية (يا. ي. ألسبرغ، 1988/1ع، ص.ص. 69-94)، في حين يذهب الحميداني متجاوزا طرح بلحسن إلى أبعد من ذلك ويزيد عليه حوارية ميخائيل باختين Mikhail.Baktine، فالحوارية Dialogisme في نظره أقوى وأشمل بتركيزها على تعدد المعاني واهتمامها بطبيعة البنية الأدبية، ولم تفصل بين الأدب والحقول الثقافية والإيديولوجية، فكلما تداخلت المعاني وامتزجت الأصوات، قويت العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا، إذ يربط ظهور الإيديولوجيا بالكتابة في حد ذاتها لأن أي

عمل أدبي من منظوره لا يخلو من إيديولوجيا ترتبط بوجهة نظر الكاتب ويضمها عمله الأدبي وهذا ما يعكس الرؤية الفنية والجمالية للنصوص الأدبية والتي تكون منطلقا للناقد والأديب في عمل كل منهما (يا.ي. ألسبرغ ، 1988/ع1، ص.ص.69-94)، لأن خلفية الناقد والأديب بالدرجة الأولى خلفية تاريخية واجتماعية فكلاهما لا يمارس الكتابة ولا النقد حتى يقرأ ويتعرض لأعمال الآخرين وكتاباتهم في فترات تاريخية محددة وهذا أساس الحوارية التي تعبر عن إيديولوجيات كثيرة بتداخل المعاني والأفكار في النص الأدبي الواحد ولذلك: «فإن الظروف التي ترافق إنتاج النصوص، تؤلف جزءا من مضمون تلك النصوص، كما أن الإيديولوجيات والإعتقادات والفلسفات والأخلاق والعوامل النفسية، لذا فإن القراءة السوسيولوجية تهتم بالظرف التاريخي وما يحيط به، كما تهتم بأوضاع الكاتب الاجتماعية والإقتصادية والساسية والنفسية، وتهدف إلى إبراز التفاعل بين المشاركين في صياغة النص الأدبي: الكاتب-القارئ-الظروف الاجتماعية» (محي الدين أشقرا، 2005، ص.58)، وهكذا فقد لخصت هذه المقولة "لمحي الدين أبو شقرا" ما يعنيه الحميداني عندما ذهب إلى حوارية باختين Bakhtine التي جمعت بين المشاركين في إنتاج النص الأدبي والمتفاعلين معه من كاتب وقارئ وظروف اجتماعية.

أما الذهبي اليوسفي بالإضافة لما تقدم عند الناقلين السابقين، فقد نظر للقضية من زاوية أخرى، حين صرح بعد دراسة له بأن العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا علاقة نسبية، فليس بالضرورة أن يكون كل أدب إيديولوجيا والعكس، وذهب إلى أن كل قراءة في إشكالية الأدب والإيديولوجيا لابد أن تؤخذ بالمناهج والجهاز المصطلحي لأن هذين المستويين لهما قيمة كبيرة في تحديد العلاقة بينهما، وما يجمع بين هذين الخطابين النقديين (الأدب والإيديولوجيا) هو المادة الاصطلاحية التي تشكل فيما بينها خطابا نقديا اصطلاحيا ينتج عنه خطاب التناسج المصطلحي، وخطاب التناسج المصطلحي بدوره يتشكل من خطابات نقدية فرعية هي نواة هذا الخطاب النقدي الجامع الذي يبحث في علاقة الأدب بالإيديولوجيا (الذهبي اليوسفي، 2016، ص.ص.287، 288). ومن جهة أخرى يختلف "اليوسفي" مع حميد "الحميداني" في أن الأدب يعبر عن إيديولوجيا الكاتب بصفة مباشرة، وإنما أصبحت دراسة النص تتم بواسطة الكشف عن بنيته الدالة وربطها بالسياق الاجتماعي العام (الذهبي اليوسفي، 2016، ص.283). وهكذا يتضح أن الرأي الأخير لليوسفي يقضي إيديولوجيا الكاتب نهائيا من القضية السابقة ويبقي على السياق الاجتماعي العام للنص فهو ما يعطيه بنية فنية وجمالية من خلال المضمرات التي تسكنه.

خاتمة:

وهكذا نخلص إلى ما يلي:

- للأدب صلة وطيدة بالمؤسسات الاجتماعية، وإيديولوجيته تتحقق ماديا وكتابيا، فهي ممارسة اجتماعية. تطرح مسائل اجتماعية يعبر عنها الأديب بمخاطبته جمهورا معيناً ويكشف لكل طبقة ما تفكر به الطبقات الأخرى لأن لكل طبقة أدبها الخاص وإيديولوجيتها الخاصة.
- اللغة جذع مشترك بين النص الأدبي والظروف الاجتماعية والإيديولوجيا، فالأدب إنتاج إيديولوجي، أنتج تحت تأثيرها، وبكونه ينتج إيديولوجيا عامة وأثارا إيديولوجية تكون مضمونا في النص وهي حسب "باختين" Mikhail Bakhtin علامة لغوية أو إيديولوجية لأن اللغة هي المادة الأولية لتشكيل النص الأدبي وبالمقابل هي مليئة بالعلامات المحملة بالإيديولوجيا.
- الرواية جنس أدبي خاص تعتبر امتدادا وتطورا ملحما للإلياذة والأوديسة، مليئة بالصراع والتناقض الإيديولوجي، فهي بهذه الصورة ملحمة في ثوب جديد للبورجوازية، وهي التي تحضر فيها الإيديولوجيا بشكل أوسع.
- تطور الأدب من خلال التعبير عن أفكار سياسية ومشاعر جديدة مع تنوع الأجناس الأدبية مثل ظهور الشعر السياسي، والمقامة والنبذة التاريخية أدى كل ذلك إلى أدلجة الأدب إلا أن الرواية تختلف عن الأشكال الأدبية السابقة الذكر، كونها تعبيرا عن التناقض والصراع بين الطبقات الاجتماعية.
- أن الرواية تتميز بتداخل اللغات وتعدد الأصوات، وتحمل دلالات كثيرة، ولذا فالإيديولوجيا تقتحم النص الروائي ككلمة وكماة أولية تساهم في بناءه وتحضر كعنصر جمالي فيه.
- أن علاقة الأدب بالإيديولوجيا بنيويا تكوينيا في نظر "الذهبي اليوسفي" تتشكل منهجيا بعيدا عن الخلفية الإيديولوجية للكاتب وأن هذه العلاقة لا تتوقف عند هذا وحسب وإنما بالكشف عن بنية النص الدالة وربطها بالسياق الاجتماعي العام.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو ديب كمال (1985) (الأدب والأيدولوجيا) مجلة النقد الأدبي الهيئة المصرية للكتاب، دار منشورة في مجلة فصول، عدد 04 الجزء 02، الصفحات: 89-51
2. اسكاريت روبر (1999)، سوسيولوجيا الأدب، ط2 ترجمة آمال أنطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان .
3. آن جيفرسون، ديفيد روبي، (1992)، النظرية الأدبية الحديثة، دط، ترجمة سمير مسعود، منشورات وزارة الثقافة، سورية.
4. بارت رولان وآخرون، (2003)، نظريات القراءة، ط1 ترجمة عبد الرحمن بوعلی، دار الحوار، اللاذقية سورية.
5. بلحسن عمار: (1984) الأدب و الأيدولوجيا، دط، المكتبة الشعبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع العربي بن مهيدي- الجزائر.
6. بوزغاية رزيق، (2018)، ورقات في لسانيات النص، ط1، دار المثقف للنشر والتوزيع، باتنة- الجزائر، نقلا عن/ de Saussure (1984) cours de linguistique gènèrale, publié par Charles bally et Albert Sechehay, PAYOT, PARIS, Ferdinand France.
7. الحميداني حميد، (1990)، النقد الروائي والأيدولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان.
8. الرويلي ميجان والبازي سعد، (2005) دليل الناقد الأدبي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان .
9. غولدمان لوسيان وآخرون، (1986)، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ط2، ترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان .
10. كرسيفيا جوليا (02 أبريل، 1987)، (الممارسة اللغوية) مجلة بيت الحكمة، العدد 05 ، الصفحات: 164-148.
11. محي الدين أبو شقرا (2005)، مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي (المرحلة الثانوية) (الغزل- المديح- الهجاء نموذجاً)، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت- لبنان
12. يقطين سعيد، (2001) انفتاح النص الروائي النص والسياق، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان.
13. اليوسفي الذهبي (2016)، الأدب والأيدولوجيا في النقد العربي الحديث ط1، الدار المتوسطة للنشر الجمهورية التونسية.
14. يا. ي. ألسبرغ (1978)، المنحى السوسيولوجي في النقد الأدبي، ترجمة نوفل نيوف، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العربي دمشق، ع1/الصفحات: 94-69.
15. de Saussure Ferdinand (1984), cours de linguistique gènèrale, publié par Charles bally et Albert Sechehay, PAYOT, PARIS, France.
16. T. todorov, (1981), Mikhaïl.Baktine le princip , dialogique, seuil.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):
عنتره عمير. (2022). القراءة السوسيولوجية للنص الأدبي بين الفني والإيدولوجي في النقد المغربي المعاصر.
آفاق فكرية، سيدي بلعباس (الجزائر)، 10 (1)، ص ص 160-174 ؛ رابط المجلة

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396>